أبو حامد الغزالى
(٤٥٠هـ/١٠٥٨م-٥٠٥هـ/١١١١م)

هو قامة من القامات العالية فى الفكر الإسلامى، فى مجالات شتى، فإن أرخت لعلم الكلام، فلا بد أن تتوقف عنده، وإن أرخت للفلسفة الإسلامية، فهو علم من أعلامها، وإن أردت استقراء جهود المسلمين فى مجال التصوف، فسوف تجد ضرورة الانحناء لجهود الغزالى، وإن كنت من الباحثين فى أصول الفقه، فأنت بالضرورة مستقرئ لجهوده، أما التربية، فهو صاحب السهم الوافر .. وهكذا عملاق من عمالقة عصر الفكر الموسوعى، مع التعمق والإبداع والتفرد .

عصره يحدد مهمته :

إذا كان الغزالى قد ولد فى منتصف القرن الخامس الهجرى، فلا بد أن نلاحظ أن هذا العهد العباسى المتأخر اتسم بانحلال سياسى وعسكرى وأخلاقى، واستولت فيه العناصر التركية على الحكم فى بغداد، فأصبح السلاجقة أصحاب السلطة الفعلية فى بغداد وهددت الإسماعيلية والباطنية الخلافة، واستشرى خطر القرامطة فى الأحساء، وسقطت أنطاكية والقدس فى أيدى الصليبيين، وبينما كان السلاجقة ينشئون المدارس النظامية للدفاع عن المذهب السنى، كان الفاطميون فى مصر ينشطون فى الدعوة للمذهب الشيعى ويجعلون من الأزهر مركزًا لها (أبو ريان، ١٩٨٠، ص٤٦٥).

وبذلك اشتدت حدة الصراع المذهبى فى بلاد الإسلام، وكان جوهر العقيدة السمحة أن يحتجب وراء الخلافات الطائفية التى تجاهلت ما كان يحيق بالإسلام من خطر محدق نتيجة للغزو الصليبى ومحاولات التخريب العقائدى المعتمد من جانب الباطنية، فكان لا بد

إذن من مواجهة جذرية حاسمة تثبت دعائم الإيمان وتواجه تآمر الباطنية وغلوهم، وتحدد دور التصوف فى نطاق الموقف السنى، وتفند دعاوى المتفلسفة وأصحاب المناهج العقلية المعارضة بنفس أسلوبهم، بعد أن استنفدت وسائل الدفاع الكلامية أغراضها المحدودة وأدت دورها فى الحفاظ على العقيدة .

ولقد كانت شخصية أبى حامد الغزالى الأشعرى الفقيه الصوفى الفيلسوف المحيط بعلوم عصره هى التى هيأت لها الظروف السالفة الذكر أن تلعب هذا الدور الخطير فى القرن الخامس الهجرى فتكون عند مفترق طرق فى الحياة العقلية الإسلامية، إذ تواجه عوامل الانهيار والتبعثر مواجهة واعية صلبة تحفظ على الإسلام أصوله وتثبت دعائمه (أبو ريان، ص٤٦٦).

وقد ولد أبو حامد الغزالى فى عام ٤٥٠هـ(١٠٥٨م) فى طوس من أعمال خراسان، وكان والده رجلاً محباً للعلم وأهله، ولكن الظروف لم تساعده على أن يشتغل بالعلم، فكان يأمل أن تتاح الفرصة لولديه للاشتغال بالعلم الذى حرم منه، ولهذا ترك الأب – عند موته المبكر– ولديه : فيلسوفنا أبا حامد وأخاه أحمد فى رعاية صديق له، حيث أتيحت لهما الفرصة لتلقى التعليم الضرورى التقليدى حتى نفد ما تركه لهما والدهما من ميراث، فأوصاهما معلمهما أن يواصلا تعليمهما فى إحدى المدارس التى كانت قائمة حينذاك، حيث تتاح فرصة الحصول على التعليم المجانى والقوت (زقزوق، ١٩٨٣، ص ٧٣).

وبعد أن درس الغزالى الفقه فى طوس وجرجان انتقل إلى نيسابور، وهناك تتلمذ على إمام الحرمين الجوينى، وأظهر نبوغًا عظيمًا ودرس علوم الدين والفلسفة والمنطق وغيرها . وبعد موت أستاذه فى عام ٤٧٨هـ(١٠٥٨م) توجه الغزالى إلى مجلس الوزير الكبير نظام الملك، وقد كان هذا المجلس منتدى العلماء . وهناك تفوق الغزالى على كل من كانوا يرتادونه من العلماء، وظهر عليهم، وفى عام ٤٨٤هـ عينه الوزير نظام الملك أستاذًا فى المدرسة النظامية فى بغداد حيث تجمع حوله عدد كبير من الطلاب. وقد ظل الغزالى يمارس مهنة التدريس أربع سنوات، ثم ترك بغداد لكى يعتزل الحياة العامة، وظل عشر سنوات فى عزلة اختيارية، وفى

خلال هذه المدة أقام بصفة خاصة فى دمشق وسافر إلى كل من القدس ومكة والمدينة . وبعد هذه العزلة الطويلة عاد – بناء على أمر السلطان – إلى التدريس فى المدرسة النظامية فى نيسابور، ولكن لفترة قصيرة، ثم رجع أخيرًا إلى مسقط رأسه، وهناك بنى بجوار منزله مدرسة لطلبة العلم، وخانقاه للصوفية، وقد مات الغزالى فى طوس سنة ٥٠٥ هـالموافق عام ١١١١م (زقزوق، ١٩٨٣، ص٧٤).

ويمكن تقسيم حياة الغزالى إلى ثلاث فترات (سليمان دنيا، ١٩٦٥، ص٥٦) :

١- الفترة التى سبقت شكه .

٢- فترة الشك بقسميه .

٣- فترة الاهتداء والطمأنينة .

أما الفترة التى سبقت شكه، فيمكن التغاضى عنها كفترة إنتاج عقلى؛ لأن الغزالى فى هذه الفترة كان متعلمًا، لم يبلغ درجة النضوج الفكرى، حتى ينتج إنتاجًا عقليًا مستقلاً، وقد حدثنا الغزالى نفسه أن الشك قد أتاه مبكرًا على قرب عهد بسن الصبا .

أما الفترة الثانية، فترة الشك، فقد كانت طويلة المدى، لأنها ابتدأت منذ سن الصبا، إلى أن تصوف واهتدى، وهى فترة طويلة فى حياة الغزالى. وقد حدثنا الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) أنه فى هذه الفترة ألف فى علم الكلام، وألف فى نقد الفلسفة، وألف فى نقد مذهب التعليم، وكان يلقى دروسًا فى مدرسة بغداد فى علوم الشريعة .

وأما الفترة الثالثة، التى اهتدى فيها إلى نظرية الكشف الصوفية فلعلها التى يمكن استمداد تآليفه فيها لتصور الحقيقة عنده (سليمان دنيا، ١٩٦٥، ص٥٩).

رحلة الغزالى من الشك إلى اليقين :

من أمتع ما كتب فى الفلسفة الإسلامية تلك السيرة الذاتية التى كتبها الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال)، من حيث الوصف التفصيلى لحاله سعيًا إلى طلب "الحقيقة" التى

هى مراد كل فيلسوف ...

فهو يشير إلى أنه لم يزل فى عنفوان شبابه منذ راهق البلوغ قبل العشرين إلى أن اقترب من الخمسين من العمر، يقتحم لجة هذا البحر العميق ويخوض غمراته، ويتهجم على كل مشكلة، ويتفحص عقيدة كل فرقة، ويستكشف أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين محق ومبطل، لا يغادر فلسفة إلا وقصد الوقوف على كنهها، ولا متكلمًا إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًّا إلا وحرص على سر صوفيته، ولا زنديقًا معطلاً إلا واقتفى أثره، فقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبه وديدنه من أول أمره، وفطرة وضعها الله فى جبلته (المنقذ من الضلال، ص ٥١) .

وقد دفع هذا التعطش إلى الحقيقة الغزالى إلى التفكير فى وسائلها وأدوات تحصيلها، فأحس بعامل التقليد القوى الفطرى يجذبه إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده، فاندفع مع تياره القاهر (محمد غلاب، ١٩٦٦، ص ٣١٨).

بيد أن عقليته المتوثبة للتفكير المدقق لم تستسغ هذا التقليد، ووجد أن مبادئ الإسلام تصرح بأن إيمان المقلد غير منج، فلفظ وسيلة التقليد، ثم فكر فيما عسى أن يحل محلها، فرأى أن أكثر من حوله يكتفون – فى الإيمان والمعرفة – بوسيلة الحواس، فجعلته إلفته إياها يطمئن إلى ضعفها هى الأخرى فنفر منها واطمأن إلى العقل . غير أنه لم يلبث أن تبين أنه لا يصل إلى كل شىء وأنه لا يستطيع أن يقول الكلمة الحاسمة فى السمعيات، فتوهم ضعفه كذلك، فتخلى عن اتخاذه إياه طريقًا معصومًا للمعرفة. وهنا اضطرب تفكيره وتزلزل اليقين فى نظره، وسقط بين براثن الشك الذى جعل يعذبه بلا شفقة، ويضنيه دون رحمة حتى أرهق صحته، وأضعف جسمه .

وهو يصور شكه فى المحسوسات فيتساءل تساؤلاً استنكاريًّا: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير متحرك، وتحكم بنفى الحركة، ثم إذا بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف .

وتنظر العين إلى الكوكب فتراه صغيرًا فى مقدار دينار بينما الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار !!

هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل تكذيبًا لا سبيل إلى مدافعته .

ثم حدث نفسه بأن الثقة بالمحسوسات إذ بطلت، فتبقى معلقة بالعقليات التى هى من الأوليات، كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد، والشىء الواحد لا يكون حادثًا وقديمًا، موجودًا ومعدومًا، واجبًا ومحالاً .

فكأنه سمع المحسوسات تسأله : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقًا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكمًا آخر إذا تجلى كذب العقل فى حكمه، وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته .

هنا توقفت نفس الغزالى فى جواب ذلك قليلا، وأيدت إشكالها بالمنام وتساءلت بدورها : أما تراك تعتقد فى النوم أمورًا، وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا، ولا شك فى تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟

وبرز تساؤل بالفعل أمام الغزالى، ففيم يأمن جميع ما يعتقده فى يقظته بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالته التى هو فيها، لكى يمكن أن يطرأ عليه حالة تكون نسبتها إلى يقظته كنسبة يقظته إلى منامه، وتكون يقظته نومًا بالإضافة إليها، فإذا وردت تلك الحال تيقن أن جميع ما توهمه بعقله خيالات لا حاصل لها، ولعل تلك الحال ما يدعيه الصوفية أنها حالتهم، إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالاً لا توافق هذه المعقولات .

ويقول الغزالى: إن هذه الخواطر، عندما خطرت له وانقدحت فى النفس، حاول لذلك علاجًا فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بدليل، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم

الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل، فبرز الإشكال، ودام قريبًا من شهرين وجد نفسه فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفاه الله من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقًا بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وتركيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، وانتهى إلى القضية الكبرى فى فلسفته وتربيته ألا وهى أن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة، فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة .

والحق أن الشك قد لعب مع الغزالى دورين مهمين (سليمان دنيا، ٢٠٠٣م، ص ١٢):

أولهما : دور كان الشك فيه خفيفًا سمحًا من النوع الذى يعترى كثيرًا من الباحثين والمفكرين .

والآخر : دور كان الشك فيه عنيفًا هدامًا، من النوع الذى يعترى كبار الفلاسفة والمفكرين.

أما الدور الأول فحقيقته أن الغزالى رأى أمامه فرقًا متعددة، وآراء متنابذة متباينة، فلم يجنح لواحدة من هذه الفرق، ولا لواحد من هذه الآراء قبل أن يفحصها كلها فحصًا دقيقًا، ولكى يعرف المحق والمبطل، من هذه الفرق، والصواب والخطأ من آرائها، لا بد من استعمال موازين يصل عن طريقها إلى المعرفة المنشودة .

وقد كان فى عهده يعولون على العقل، وعلى الحواس، وعلى نصوص الكتاب والسنة، يتخذون منها موازين يزنون بها الآراء، ويفاضلون بها بينها .

والناس فى استعمال العقل والحواس، والنصوص، يتفاوتون، فهنالك من يقدر على أن يميز بين اليقين وغيره مما ليس منه ولكنه يلتبس به، وهناك من لا يقوى على بلوغ مثل هذه الدرجة .

وفيهم من ينخدع بالحواس، ومنهم من يفطن إلى تلبيساتها .

والنصوص هنالك من يجمد على ظواهرها، ومن يفطن إلى أهدافها ومراميها، فبالرغم مما توافقوا عليه من الرضى بهذه الموازين، فإنهم اختلفوا حول ما تأدوا إليه بها، وكان من نتيجة ذلك أن كان منهم من ضلوا وأضلوا.

وإذا كان الغزالى نفسه قد مر بمثل هذا بالفعل، فإنه قد عرف من خلال عثراته، كيف ينهض، فقد لاحظ أن علوم أولئك الذين :

لم يقدروا – أو لم يحرصوا – على أن يميزوا بين اليقين، وبين ما هو شبيه باليقين.

ولم يقدروا – أو لم يحرصوا – على أن يميزوا بين الحس الصادق، وبين الحس الخادع .

ولم يقدروا – أو لم يحرصوا – على أن يميزوا بين روح النص ومادته، إن صح هذا التعبير..

ليست جديرة بأن تسمى علومًا، فالعلم هو اليقين، لا ما يشبه اليقين . والعلم هو ما يهدى إليه الحس الصادق لا الحس الخادع فى المجال الذى لا سبيل إلى الاستغناء عن الحس فيه.

والعلم هو ما يهدى إليه النص، لا ما تدل عليه ظواهره، فى المجالات التى ينفع فيها استقاء العلم من النصوص (سليمان دنيا، ٢٠٠٣م، ص ١٣) .

وعلى هذه الحقيقة أفاق الغزالى وحدد مراده من العلم بأنه: "الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريبة، ويقارنه إمكان الغلط، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنًا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهارها بطلانه مثلاً من : يقلب الحجر ذهبًا، والعصا ثعبانًا، لم يورث ذلك شكًّا وإنكارًا" .

ونتساءل مع "زكريا إمام" (١٩٩١، ص ٢٧١) : من أين للغزالى بهذه الشروط المسبقة والمعايير المتشددة فى تعريف العلم ؟ بل من أين أتى بهذه التصورات المسبقة للعلم ؟ بل لماذا ترتبط فكرة العلم بفكرة اليقين عنده، ولننظر إلى هذه الكلمات الرئيسية التى هى بمثابة مفاتيح لتفكيره فى هذه المسألة : "حقائق الأمور"، "تنكشف" .. "لا يبقى معه ريب"، "إمكان الغلط والوهم" .

إن الإنسان لا يملك إلا أن يقول إن تلك التصورات هى فى الواقع تصورات قرآنية أخذها الغزالى واقتبسها من القرآن الكريم :

– ففى القرآن نجد أن العلم إنما يتعلق "بحقائق الأمور" ولا يتعلق بظواهرها، فلقد عاب القرآن الكريم على الكفار قلة علمهم، فقال فى سورة الروم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ .

– والعلم يفيد الكشف، يقول تعالى فى سورة ق: ﴿... فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾.

– والعلم فى القرآن لا يبقى معه إمكانية الريب، يقول فى سورة البقرة :﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

– والعلم فى القرآن إنما هو نقيض الوهم، وقرين اليقين، يقول– تعالى– فى سورة الجاثية: ﴿... إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾.

– والأنبياء جميعًا تلقوا علومهم من الله، وهذا هو القرآن الكريم يذكر الرسول العربى الأمى أن الله هو الذى علمه ما لم يكن يعلم، يقول فى سورة النساء: ﴿... وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣﴾.

مكانة العقل فى فلسفة الغزالى :

من المشهور المتداول أن الإمام الغزالى يفضل التصوف على العقل، بل يقال إنه حقر العقل وغض من شأنه، ومن أبرز من قالوا بهذا الدكتور عاطف العراقى (ثورة العقل فى الفلسفة، ١٩٧٦، ص١٥٢)، استنادًا إلى أن من يتخذ من التصوف مذهبًا له بعد دراسته للفلسفة، يصبح عدوًّا للفلسفة إلى درجة كبيرة جدًّا، ويستند كذلك إلى أنه فى تقسيمه للعلوم الفلسفية يقسمها قسمة دينية، فقسم يجب التفكير به، وقسم يجب التبديع به، وقسم لا يجب إنكاره أصلاً (المنقذ من الضلال، ص١٠).

كذلك رأى العراقى أن الغزالى حين يعلن كفر الفلاسفة يعتمد إلى حد كبير على الأسلوب الخطابى الذى وجد فيه مبالغة كبيرة، من ذلك ما ذكره فى كتابه (تهافت الفلاسفة، ص٧٤): "وإنما مصدر كفرهم أسماء هائلة كسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم ... وهم مع رزانة وغزارة فضلهم، منكرون للشرائع والنحل وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة، فلما قرع ذلك سمعهم ووافق ما حكى من عقائدهم وطبعهم، تجملوا باعتقاد الكفر تحيزًا إلى غمار الفضلاء بزعمهم وانخراطًا فى سلكهم، وترفعًا عن مسايرة الجماهير والدهماء واستنكافًا من القناعة بأديان الآباء".

لكن هذا الرأى ربما كان بحاجة إلى المراجعة، خاصة إذا تأملنا فى أن اسم الكتاب ينصب على "تهافت الفلاسفة" وليس "الفلسفة"، فهو يهاجم فئة بعينها أدت بها الثقة المطلقة فى العقل إلى اقتحام مناطق لا يملك العقل من الوسائل ما يعينه على استكشاف مجاهلها، ومعظمها مما نعرفه باسم "الميتافيزيقا"، خاصة وأن بعض ما سيق فى هذا المجال قد أدى بالبعض إلى آراء لا تتسق مع جوهر العقيدة الدينية، حتى هؤلاء الذين حاولوا التوفيق، مثل ابن سينا، وقعوا كما بينا فى سلبيات غير هينة .

كذلك فمن المهم عند إلصاق تهمة معاداة العقل لدى الغزالى أن نقرأ جيدًا فى مختلف كتبه لمعرفة موقفه النهائى من العقل والتصوف، ذلك أن من يفعل هذا فإنه ينتهى إلى هذه الفكرة التى عرضها الدكتور محمود قاسم فى محاضرة ألقيت بجامعة أم درمان الإسلامية فى ١١ فبراير ١٩٦٧، حيث تتلخص فكرته (ص٥، مطبعة مخيمر) فى أنه يجب أن ينظر إلى الغزالى فى جملة إنتاجه، وألا يضرب بعض كتبه ببعض، بمعنى أنه من حسن السياسة فى البحث أن نحدد العناصر الثابتة فى كتب الغزالى قبل العزلة الصوفية وبعدها، فإذا نحن فعلنا ذلك وجدنا أن الغزالى إنما سمى حجة الإسلام؛ لأنه يسير فى الاتجاه العام الواضح للروح الإسلامية، وهى ضرورة الجمع بين الدين والعقل، بحيث يتخذ العقل حكمًا فيما يقرره أهل التصوف، ويجعل العقل خاضعًا لطور النبوة .

والغزالى يقرن العقل بالعلم ويؤكد شرف الاثنين معًا، مستندًا فى ذلك إلى الشرع ودلالة

العقل نفسه، والحس، كما نرى فى كتابه ميزان العمل (سليمان دنيا، ٢٠٠٣، ص٣٣١)، فمن ناحية الشرع يستشهد بأحاديث نسبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن بدون تخريج، مثل قوله ﷺ: "أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له : أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتى وجلالى .. ما خلقت خلقًا أكرم علىَّ منك. بك آخذ، وبك أعاقب".

وأما دلالة العقل على شرف العقل، فهو أن ما لا تنال سعادة الدنيا والآخرة إلا به، فكيف لا يكون أشرف الأشياء ؟ وبالعقل صار الإنسان خليفة الله، وبه تقرب إليه، وبه تم دينه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم، فيما ينقل الغزالى: "لا دين لمن لا عقل له"، ونقل عنه أيضًا: "لا يعجبكم إسلام امرئ حتى تعرفوا عقله".

وأما دليل الحس على شرف العقل (ميزان العمل، ص ٣٣٢)، فكافٍ فى إدراك شرف العقل والعلم، حتى إن أكبر الحيوانات شخصًا وأقواها بدنًا، إذا رأى الإنسان احتشمه بعض الاحتشام، واستشعر الخوف منه، لإحساسه بأنه مستولٍ عليه بجبلته.

فالغزالى يؤكد فى بعض كتبه أن العقل المنزه عن الخبث والأوهام والذى لا تشوبه عاطفة مريبة أو أوهام جاءته عن طريق تقليد الآباء والأجداد يشبه العين السليمة من العيوب، فى حين أن الشرع يشبه الشمس التى يغمر نورها الأشياء، فتجعل رؤيتها ممكنة، فلا العين وحدها تكفى، ولا وجود للألوان إلا إذا رأتها الأبصار . ومعنى ذلك عنده أن من يقبل على القرآن دون أن يستخدم عقله فى تدبره يشبه رجلاً يغمض عينيه حتى لا يرى هذا الضياء، أما من ينصرف عن الشرع، زاعمًا أنه يعتمد على العقل وحده، فهو شبيه برجل فسد طبعه، فلم يستخدم عينيه للرؤية فى ضياء النهار، بل أصر عبثًا على رؤية الأشياء فى ظلام دامس (محمود قاسم، ص ٦).

لقد كانت مشكلة معرفة الحقيقة المطلقة تمثل – كما رأينا – القضية المركزية فى فكر الغزالى، وقد استطاع التوصل إلى حل هذه المشكلة عن طريق معرفة الذات ومعرفة الله، ووجد فى هذه المعرفة الوضوح المطلق الذى كان يبحث عنه، وبذلك أصبح العقل – الذى أمكن الشك فيه فى بادئ الأمر بوصفه ملكة المعرفة، حاصلاً على التبرير الفلسفى كأداة

للمعرفة اليقينية، وكنور من نور الحقيقة (زقزوق، ص ١٦٨).

ومن هنا يمكن وصف العقل – بناء على المبدأ الفلسفى للغزالى – بأنه "الفطرة الغريزية والنور الأصلى الذى به يدرك الإنسان حقائق الأشياء" .

وبعد أن تأكدت بذلك شرعية العقل كملكة لمعرفة الحقيقة، يبرز هنا سؤال مهم عن مجال المعرفة العقلية وحدودها؟

وعندما يبدأ الغزالى فى بحث هذا الموضوع فإنه لا يلجأ إلى اتخاذ نظريات فلسفية قائمة أو غيرها من نظريات صوفية أو دينية منطلقًا لبحثه، وإنما المنطلق الذى يعتمده هنا هو المنطلق ذاته الذى اعتمده قبل التوصل إلى مبدئه الفلسفى، ونعنى بذلك الإنسان العارف والباحث عن المعرفة، أى العقل، فالأساس الوحيد لكل تفكيره وبحثه يتمثل الآن فى مبادئ العقل فقط . وقد أدى به ذلك فى النهاية إلى التوصل إلى أن لدى العقل إمكانات معرفية شاملة (زقزوق، ص ١٦٩).

وقد بحث الغزالى هذه القدرات والإمكانات فى كتابه (مشكاة الأنوار) (تحقيق أبو العلا عفيفى، ١٩٦٤)، ففى الفصل الأول يبدأ بمناقشة معنى "النور" فى عرف العامة وعرف الخاصة، ثم فى عرف خاصة الخاصة، وذلك تمهيدًا لبيان أن الله –تعالى– هو نور الأنوار أو النور الأعلى الأقصى، وأنه النور الحق والحقيقى الذى تنبعث منه سائر الأنوار التى لا تسمى أنوارًا إلا عن طريق المجاز، فكأن الغزالى بدأ بقضية اعتبرها بدهية أو مسلمة، وهى أن للعالم أصلاً مغايرًا له وأن هذا الأصل هو النور الحقيقى أو النور بالذات، ثم اتخذ خطوات تدريجية لا لإثبات وجود ذلك النور، بل لتقرير وجوده (أبو العلا عفيفى، ص ١٢).

والنور بالمعنى العامى هو ما يُبصَر بنفسه ويبصر به غيره كنور المشمس والقمر والسراج والنار المشتعلة، ولكن لما كان هذا النور لا يُبصَر، ولا يُدرَك إلا إذا وجدت عين تبصره، اعتُبر الروح الباصر ركنًا فى إدراكه، وكان أولى بأن يطلق عليه اسم النور من النور الظاهر .

هذه أول خطوة خطاها الغزالى فى الترقى فى معنى النور وفى تجريده، إذ انتقل من النور

الظاهر المحسوس إلى نور آخر غير ظاهر وغير محسوس، وهذا النور الآخر هو النور فى عرف الخاصة .

ثم نظر الغزالى فى "نور العين"، فإذا به موسوم بأنواع من النقصان، فهو يبصر غيره ولا يبصر نفسه، وهو لا يبصر من الأشياء إلا ظاهرها، ولا يبصر الأشياء المفرطة فى القرب والبعد، ولا يبصر إلا المتناهى، ويرى الصغير كبيرًا والكبير صغيرًا، والساكن متحركًا والمتحرك ساكنًا وهكذا .

ولكن فى الإنسان "عينًا" ليس فيها شىء من هذه النقائص وهى "العقل" أو الروح أو النفس الإنسانية، لذلك كانت أولى باسم النور من العين الباصرة . هذه هى الخطوة الثانية التى خطاها الغزالى فى تجريد النور حيث وصل إلى نور عقلى به يبصر الإنسان نفسه وغيره، ويدرك ما وراء الحجب، وينفذ إلى بواطن الأمور وأسرارها وحقائقها، والعالم أعلاه وأسفله، بل يدرك الخالق -جل شأنه- ويدرك نسبته إليه (أبو العلا عفيفى، ص ٦).

إلا أن العقل، على الرغم من كل هذه الكمالات التى من أجلها استحق اسم النور أكثر مما استحقه نور البصر، لا يدرك مدركاته على درجة واحدة، فمن الأشياء ما يدركه إدراكًا مباشرًا فى جلاء ووضوح، وبعضها ما لا يدركه إلا إذا نُبه إليه من مصدر حكيم، والقرآن منبه للعقل لأنه أعظم حكمة .

ومن هنا كان القرآن أولى باسم النور من العقل، وورد وصفه بالنور فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ ﴾، وفى قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾.

الأبعاد التربوية للقدرة على المعرفة :

يؤكد الغزالى أن جوهر الإنسان الذى يتميز به هو قدرته على المعرفة (على عيسى عثمان، ص ١٣٠)، لكن لا يمكن للإنسان أن يحقق كمال جوهره إلا بنمو متكامل لجميع جوانب شخصيته، لا يستطيع الوصول إلى الكمال بتنمية ما يتميز به فقط، حتى ولو رغب فى ذلك،

ومع أن معرفته لطبيعة جوهره ستكون أكثر أهمية فى تحقيق غايته النهائية، فإن هذه المعرفة تفترض مسبقًا معرفة كل جانب من جوانب طبيعته، وتكون معرفته لكل هذه الجوانب مفاتيح لمعرفته للعالم، وبالتالى لله. ومع ضرورة معرفة هذه الجوانب يجب أن يوجه الإنسان كليته إلى غايته النهائية (على عثمان، ص ١٣١)، ولعل النص التالى من كتاب الإحياء (ج٤، ص٤٣٩) يلخص موقف الغزالى من هذه الناحية :

"فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك، إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع، وتغضب فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السماوات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربًا من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام، بل هم أضل سبيلا .

وإذا عرفت طريق الفكر فى نفسك، فتفكر فى الأرض التى هى مقرك، ثم فى أنهارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السماوات" .

وإذا كانت عظمة الإنسان التى فاق بها جملة أصناف الخلق تكمن فى استعداده لمعرفة الله -عز وجل-، فإن لهذه المعرفة تبعات ومسئوليات تقتضى أن يكون الإنسان مستقيم السلوك، طاهر القلب، صادق النية، مجانبًا للهوى، ومثل هذا وذاك بحاجة إلى "إرادة" تكتل كل ما فى الإنسان من النيات الحسنة والقدرات والمهارات لسلوك طريق الهداية، وهذه الإرادة أيضًا هى جزء آخر مما تميز به الإنسان عن سائر الخلق، فبها، مع المعرفة، يدرك عواقب الفعل والقول، فيقبل على هذا وينفر من ذاك.

وإذا كان الإنسان يتميز بكل من القدرة على المعرفة، والإرادة عن سائر الخلق، إلا أنه

أيضًا لا يستطيع تفعيل القوتين: المعرفة والإرادة، إلا بعد تجاوز مرحلة الطفولة، التى هى مرحلة ضعف واضح، ومن ثم فهناك ضرورة كى ينمو الإنسان قبل أن يُفَعّل قدرته على المعرفة وإراداته، وهنا تفرض عملية التربية والتنشئة نفسها كضرورة دينية وحتمية حياتية وبعد إنسانى .

والإنسان فى طريقه إلى إتمام عملية التنشئة والتربية والتكوين، يمر بمراحل، أولها تكون فى سنوات عمره المبكرة، حيث يجد الإنسان لديه معرفة تسمى بالمعرفة الضرورية، لا يدرى الإنسان أين حصلت، ولا كيف ؟ مثل علم الإنسان أن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين، والشىء الواحد لا يكون حادثًا وقديمًا، موجودًا ومعدومًا معًا، فمثل هذه المعرفة يجد الإنسان نفسه مفطورًا عليه منذ الصبا (الإحياء، ج٣، ص ١٦) .

ثم تأتى إليه بعد ذلك ما يسمى بالعلوم المكتسبة التى تقتضى جهدًا فى التحصيل والعلم والمعرفة، ولكن هذه الدرجة لها مراتب شتى، تتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها، إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهى على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب، وقد يكون سريع الحصول، وقد يكون بطىء الحصول، وفى هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء، والأنبياء والأولياء، ويكون الإنسان فى المرحلة الأولى وكأنه قد عرف عناصر الكتابة، ولكنه ما زال عاجزًا عن جمع الكلمات إلى بعضها لتؤلف عبارات ذات معنى (على عثمان، ص ١٣٤).

والمقصد المهم للمعرفة هو تكوين "المؤمن الفاضل"، وهذا لا يعنى الاقتصار على تربية فضائل معينة فى الإنسان، إذ مجموع الفضائل التى تميز المؤمن الصادق، الغرض منها إيجاد حال فى الشخصية بها يتحرر القلب، فيستعد لمعرفة الحقيقة وينصرف للسعى وراءها، والوسواس هو أخطر العقبات التى تعترض هذه الحرية؛ وذلك لأنها تشغل قلب الإنسان وتكيف عقله بصورة متدرجة لخدمتها، ويكون التحرر من هذه النزعات بتثبيت الفضائل عن طريق الرياضة النفسية وهى وسيلة ضرورية لإنقاذ القلب من انشغالاته التى لا لزوم لها، وحصر انشغاله فى متابعة الحقيقة (على عثمان، ص ١٤٢).

ويناقش الغزالى المسألة الخاصة بقابلية الطبيعة الإنسانية للتغيير عن طريق التربية، ذلك أن هناك من ينكرون أثر التربية زعمًا منهم أن طبيعة الإنسان الأصلية تنمو طبقًا لسنن لا تستطيع الإرادة أن تتحكم فيها، ولا تخضع للتأثر عن طريق التربية، ويستند هؤلاء إلى ملاحظتين: أولاهما، تشبيه الشكل الباطنى بالشكل الظاهرى للإنسان، والأخرى: تجربتهم الخاصة. أما بالنسبة إلى الملاحظة الأولى فكانوا يرون أن من المستحيل على الإنسان أن يغير ظاهره الخارجى وفقًا لمشيئته، وكذلك يتعذر عليه تبديل طبيعته الباطنية وفقًا لإرادته. أما بالنسبة إلى الحجة الثانية، فهم يدعون أنه إذا صح ما يقال من أن الطبيعة الطيبة هى ثمرة عملية من التحولات الإرادية التى تهدف إلى استئصال الشهوات والعواطف، فإن جهودهم الفعلية وتجاربهم الشخصية تثبت استحالة تحقيق هذه الغاية، ويرى أصحاب هذه المدرسة الفكرية أن صلاح الطبائع أو فسادها أمور تمت إلى القضاء والقدر وتخرج عن سيطرة إرادة الإنسان .

وقد بذل الغزالى جهدًا فكريًّا متميزًا لدحض هاتين الحجتين، وهو بذلك إنما يزود التربية بطاقة عمل وشرعية وجود، وفاعلية حقيقية. أما دفاعه فقد قام على ما يمكن تسميته بحجة الذوق السليم، إذ يتساءل هنا ما فائدة العلم ومعرفته، سواء أكان وحيًا أو لم يكن، إذا ثبت أن الإنسان يعجز بمحض إرادته ووعيه عن التحول بنفسه نحو الأفضل ؟ (على عثمان، ص ١٤٤).

أما الحجة الثانية التى يعتمد عليها، فهى تقوم على مناقشة فلسفية متعمقة، فالمولى – عز وجل– قد خلق كل الأشياء إما كاملة أو ناقصة، بالنسبة إلى أدائها لوظائفها المقدرة لها فى حياة الخلق، ويسوق مثالاً للأشياء الكاملة بالسماوات والأرض والأجسام المادية، فوفقًا للمعطيات المعرفية التى توافرت للغزالى، رأى أن الإنسان لا يملك الوسائل لتحويل طبيعة هذه الأشياء، ولو عاش الرجل إلى اليوم لرأى أن المعرفة العلمية أصبحت تمكن الإنسان من إدخال تعديلات، مهما بدت طفيفة فى طبيعة بعض الأشياء، ولعل هذا لا ينقص من حجة الغزالى بل يعطيها قوة أكثر لأن الوضع المعاصر، يفتح مجالاً أوسع للتربية والتغيير .

أما الأشياء التى تخلق ناقصة، فيراد من خلقها على هذا النحو أن تتقبل الكمال، عندما

تتهيأ له الظروف المواتية، وفى مثل هذا المجال من الموجودات، تصبح الإرادة الإنسانية الحرة شرطًا فى استكمال هذه الأشياء، وإن كان دور الإرادة فيها محدودًا، فليس فى وسع الإنسان مثلاً أن يحيل بذرة تفاح إلى شجرة نخيل، كما أن ليس فى إمكانة أن يزيل بذرة التفاح من الوجود.

وإذا كان هذا القول ينطبق أيضًا على شهوات الإنسان، من حيث إنه لا يستطيع، مثلاً، أن يلغى شهوته الجنسية أو شهوته للطعام، أو يزيل ما يشعر به من غضب وانفعال، لكن بوسع الإنسان أن ينمى مثل هذه الجوانب بحيث تتسق وتتوازن بين بعضها البعض، وتتجه نحو الأفضل، وهذا هو الدور المنوط بمجاهدة الذات، دون استئصال، وإنما بكبح الجماح، وتعديل المسار، وهنا مرة أخرى، تأتى مهمة المعرفة والإرادة .

فضل العلم والتعليم والتعلم :

فى الجزء الأول من كتابه (إحياء علوم الدين) استهله بشرح مفصل يؤكد من خلاله أن العلم ذو قيمة عظمية، ومن ثم فإن السعى لتعلمه، والجهد المبذول لتعليمه هو من أجل الأعمال، ويحرص على أن يقرن ما يقول بشواهد من الشريعة ومن العقل، فمن ذلك قول المولى -عز وجل- فى سورة آل عمران: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾، فنحن نلاحظ هنا كيف بدأ - سبحانه وتعالى- بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم، مما يعنى إضفاء قدر كبير من الشرف والفضل والجلاء والنبل . كذلك قال تعالى أيضًا فى سورة المجادلة: ﴿ ... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾، ويستند إلى ما قاله ابن عباس عنهما أن للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام .

ومن الشواهد أيضًا قوله -تعالى- فى سورة الزمر: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾، وقال فى سورة فاطر: ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾، وإذ يقول تعالى فى سورة النمل: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾، ففى هذا تنبيه على أنه اقتدر بقوة العلم، وفى قوله كذلك فى سورة القصص: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾، بمعنى أن عظم قدر الآخرة لا يعيه إلا ذوو العلم.

ووفقًا للمنهج الأصولى، فبعد أن يستشهد الغزالى بآيات القرآن الكريم، يتجه إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجد من بينها قوله: "من يرد الله به خيرًا يفقهه فى العلم"، متفق عليه . وقال – صلى الله عليه وسلم- أيضا : "العلماء ورثة الأنبياء"، أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . كذلك قال (صلى الله عليه وسلم) فى تفضيل التعلم على العبادة: "فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى".

وبعد أن يأتى بالشواهد القرآنية والنبوية، يلتفت إلى آراء العلماء، فينقل لنا ما قاله أبو الأسود : ليس أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك. ونقل عن ابن عباس : خير سليمان بن داود -عليهما السلام- بين العلم والمال والملك فاختار العلم، فأعطى المال والملك معه .

ويستند كذلك إلى المنطق العقلى بتأكيده على أن ما يميز به الإنسان عن الحيوان هو العلم، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه، فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته، فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنًا منه (الإحياء، ج١، ص ٧).

أما بالنسبة إلى قيمة عملية التعلم، فمما يدل عليها قول المولى -عز وجل- فى سورة التوبة: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، وقوله فى سورة النحل: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء

بما يصنع"، أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم، وقال: "من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة"، أخرجه مسلم .

واستند إلى أقوال بعض الصحابة، فقال عمر رضى الله عنه : "موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار، أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه"، وقال أبو الدرداء: "لأن أتعلم مسألة أحب إلىَّ من قيام ليلة". (الإحياء، ج١، ص ٨).

أمـا ضـرورة التعليم، فيسـتدل الغزالى عليها من قوله – سبحانه– فى سورة آل عمران ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾، فهـو إيجاب للتعليم، وقوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

وفى هذا الصدد قال النبى صلى الله عليه وسلم: "ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه". أخرجه أبو نعيم فى فضل العالم العفيف (الإحياء، ج١، ص٩).

ومن الناحية العقلية، يؤكد الغزالى أن العلم إذا كان على هذه الدرجة من علو الشأن، فإن تعليمه يكون إفادة إلى الأفضل، وهو يبرهن على هذا بتأكيده على أن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وهى الآلة الموصلة إلى الله –عز وجل– لمن اتخذها آلة ومنزلاً، لا لمن يتخذها مستقراً وموطنًا، ولا ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الإنسان .

وتنحصر أعمال البشر وحرفهم وصناعاتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام (الإحياء، ج١، ص١٢) :

أحدها: أصول لا قوام للعالم دونها، وهى أربعة : الزراعة؛ وهى للمطعم، والحياكة؛ وهى للملبس، والبناء؛ وهو للمسكن، والسياسة؛ وهى للتأليف والاجتماع، والتعاون على أسباب

المعيشة وضبطها .

الثانى : ما هى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة فإنها تخدم الزراعة .

الثالث : ما هى متممة للأصول، ومزينة كالطحن والخبز للزراعة ..

وأشـرف هـذه الصنـاعات أصولها، وأشـرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح، ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع، والسياسة فى استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة، على أربع مراتب:

الأولى: وهى العليا، سياسة الأنبياء -عليهم السلام- وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا فى ظاهرهم وباطنهم .

والثانية: الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا، ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم .

والثالثة: العلماء بالله -عز وجل- وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء وحكمهم على باطن الخاصة فقط، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع .

والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العامة فقط .

وينتهى الغزالى من هذا كله إلى أن أشرف الصناعات الأربع بعد النبوة: إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة، وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة، وهو المراد بالتعليم (الإحياء، ج١، ص١٣).

وفى كتابه (ميزان العمل، ص٣٣٤)، يسلك مسلكًا عقليًّا منطقيًّا مرة أخرى فى التأكيد على وجوب التعلم، وذلك لإظهار شرف العقل الذى هو ما يجعل الإنسان إنسانًا، وبه أصبح الإنسان سيد الكائنات، فماذا قال فى ذلك ؟

فإذا كان شرف العقل لكونه وسيلة العلم والحكمة والمستوعب لهما، فإن نفس الإنسان معدن للعلم والحكمة، ومنبع لها، وهى مركوزة فيها بالقوة، فى أول الفطرة، لا بالفعل، وهى فى ذلك، كالنار فى الحجر، والماء فى الأرض، والنخل فى النواة، ولا بد من سعى فى إبرازه بالفعل، كما لابد من سعى فى حفر الآبار لخروج الماء .

ولكن، كما أن من الماء ما يجرى من غير فعل بشرى ..

ومنه ما يحتاج فيه إلى تعب قليل ...

كذلك العلم فى النفس البشرية : منه ما يخرج إلى الفعل من القوة، من غير تعلم بشرى، كحال الأنبياء عليهم السلام، فإن علومهم تظهر من جهة الملأ الأعلى من غير واسطة بشرية، ومنه ما يطول الجهد فيه، كأحوال العامة من الناس، لا سيما ذوو البلادة الذين كبرت سنهم فى الغفلة والجهل، ولم يتعلموا زمن الصبا، ومنه ما يكفى فيه السعى القليل كحال الأذكياء من الصبيان .

مفهوم التربية ومقصدها :

كان من الطبيعى أن تلقى النزعة الصوفية لدى الغزالى ظلالها على مفهومه للتربية، وبالتالى على أهدافها ومقاصدها، فالتربية عند الغزالى "تهذيب لنفوس الناس من الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة" (الإحياء، ج١، ص٢٣)، ويعطى مثالاً حسياً فيقول: "ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذى يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه"، واستقراء أحاديث متعددة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- تكشف عن تأكيد الإسلام على هذا الجانب، فقال: "ما نحل والد ولدًا أعظم من أدب حسن"، ومن ثم وجد الغزالى فى التربية الوسيلة الإسلامية التى تبلغ بالإنسان درجة الكمال، فقال: "الطريق : تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها والإقبال بكل الهمة على الله تعالى" (ميزان العمل، ص٢٢٢).

ويتجلى لنا هذا أيضًا من تأمل ما ذكره وهو بصدد بيان الوظيفة الثالثة من وظائف المعلم، فى كتابه الإحياء (ج١، ص ٥٦)، فالغرض من طلب العلوم "القرب إلى الله دون التطلع إلى المقاصد الدنيوية من طلب رياسة أو مباهاة أو منافسة، ومن ثم فواجب المعلم أن يُكَرّه تلميذه فى مثل هذه الأمور، وهو يسوق نموذجًا من بعض العلوم والمعارف التى كانت معروفة فى وقته مثل علم الخلاف فى الفقه والجدل فى الكلام والفتاوى فى الخصومات والأحكام، فكل هذا لا ينبغى أن يترك المعلم تلميذه فى هذا الاتجاه، ومبرره فى ذلك أن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة، ولا من العلوم التى قيل فيها: "تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله"، بينما يشير إلى عدد من العلوم التى تقصد الآخرة مثل علم التفسير وعلم الحديث ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها .

فالغزالى يرى أن الدنيا كلها لا أصل لها؛ لأنها فانية ولا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممر لا دار مقر، وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر، وأن الموت منتظر فى كل ساعة، وأن الكَيّس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة، حتى تعظم درجته عند الله ويتسع نعيمه فى الجنان.

ويؤمن الغزالى بقدرة التربية على تعديل السلوك وتنميته فى إطار الأخلاق الإسلامية القويمة، ويكذب الذين يقولون: "بأن الخُلُق كالخَلْق" ولا يقبل التغيير، مستدلاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حسنوا أخلاقكم"، مما يعنى إمكانية تغيير السلوك فى الاتجاه المرغوب عن طريق التربية (ميزان العمل، ص ٢٤٧).

ومع سمو وشمول الهدف الدينى للتربية عند الغزالى، فإنه لم يهمل الأهداف الأخرى لأنها تتسق وتؤدى فى عمومها إلى تحقيق الهدف الدينى، ومن هنا يأتى قوله: "وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم".

وحتى وهو يحصر نفسه فى إطار أخلاقى دينى، لا ينسى قيمة الأبعاد الأخرى ويدرجها جميعًا تحت بند الفضائل فيكتب تحت عنوان "بيان أنواع الخيرات والسعادات: الفضائل

النفسية (تنحصر) فى أربعة أمور: العقل وكماله العلم، والعفة وكمالها الورع، والشجاعة وكمالها المجاهدة، والعدالة وكمالها الإنصاف، وهى على التحقيق أصول الدين، وإنما تتكامل هذه الفضائل (بنوع آخر من الفضائل) البدنية المنحصرة فى أربعة أمور فى الصحة والقوة والجمال وطول العمر" (قمبر، ص ٢٣٠) .

وفى رسالته الشهيرة المعنونة بـ (أيها الولد)، يكثف الغزالى القول فى الهدف الدينى لعملية التعلم والتعليم، مبرزًا جملة مما أسماه "بالفوائد" التى تعود على المتعلم من تحصيل ما يوصل إلى هذا الهدف، وهى (عطار، ١٩٦٧، ص١٢٦) :

١- لكل واحد من الخلق محبوب ومعشوق يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، وبعضه يصاحبه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله، ويتركه فريدًا وحيدًا، ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد، وهنا ينبه الغزالى إلى أن أفضل محبوب المرء، ما يدخل فى قبره ويؤنسه فيه، وهذا لا ينطبق إلا على الأعمال الصالحة، ومن ثم يأخذها محبوبًا له، لتكون سراجًا فى قبره، وتؤنسه فيه، ولا تتركه فريدًا .

٢- من الشائع أن نرى الخلق يقتدون أهواءهم، يركضون وراء رغبات أنفسهم، فتأمل قول الله -عز وجل- فى سورة النازعات: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾، فأيقن أن القرآن حق صادق، مما يوجب أن يبادر المتعلم إلى مخالفة أهواء النفس، ويشمر عن ساعديه لمجاهدتها، حتى ترتاض لطاعة الله وتنقاد .

٣- إذا كانت الكثرة من الناس تسعى إلى جمع حطام الدنيا، ثم إذا بهم، عند الموت، تفرغ أيديهم مما كانوا يملكون، فلا بد من تأمل قوله -تعالى- النحل: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

٤- وهناك من الناس من يظن أن شرفه وعزه يكمن فى كثرة الأقوام والعشائر، فيغتر بهم، ويزعم آخرون أن علو الشرف والعزة إنما فى كثرة الأموال، وكثرة الأولاد، ومن هنا فقد وقع

البعض فى هوة غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم . واعتقد البعض أن الشرف والعزة يكون فى إتلاف المال وتبذيره، لكن القول الحق فى هذا يكمن فى قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، مما يوجب اختيار "التقوى"، فهذا هو الحق وفقًا لمعايير كتاب الله، أما هذا الذى أشرنا إليه من سعى البعض، فهو باطل وزائل .

٥- وهناك البعض من الناس يذم بعضهم بعضًا أو يغتاب بعضهم بعضًا، مما يورث الحسد فى المال، والجاه، والعلم، لكن إذا تأملنا قول المولى -عز وجل- فى سورة الزخرف: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، ومن ثم فالقسمة كانت من الله فى الأزل، وبالتالى لا ينبغى حسد أحد، والرضا بقسمة الله .

٦- وكثير من الناس يعادى بعضهم بعضًا لغرض وسبب دنيوى، ولكى نشفى من مثل هذا فلنتأمل قوله تعالى فى سورة فاطر: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

٧- وهناك من الناس من يسعى بجد، ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش بحيث يقع به شبه حرام، ويذل نفسه، وينقص قدره، ومن ثم وجب تأمل قوله -تعالى- فى سورة هود: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾. لكن الغزالى هنا يقدم تفسيرًا ربما يصرف المتعلم عن السعى لكسب الرزق، فهو يتبع الآية السابقة بقوله: "فعلمت أن رزقى على الله تعالى وقد ضمنته فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعى عمن سواه" (عطار، ص ١٢٧).

٨- الكثرة الغالبة من الناس، كل واحد منهم يعتمد على شىء مخلوق، بعضهم على الدينار والدرهم، وبعضهم على المال والملك، وبعضهم على الحرفة والصناعة، وبعضهم على مخلوق مثله، لكن فلنتأمل قوله - تعالى- فى سورة الطلاق: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

من هنا يوجب الغزالى على الآباء تأديب الأبناء وتربيتهم وإرسالهم إلى المعلم فى وقت مبكر، إلى الدرجة التى نجده يفضل سن أربع سنوات وأربعة أيام، وهو كلام يثير الدهشة بالنسبة إلى عدد الأيام، فهو لم يقدم تبريرًا وتفسيرًا، فقط يكتب فى (منهاج المتعلم، ص٧٩): "فإن الأب إذا لم يؤدب ابنه، ولم يحسن أدبه، ولم يجلس بين يدى المعلم، ظهرت آثار الانحراف فى جميع أعضائه، خصوصًا فى لسانه، وذهب استعداده وقابليته، وحدث الجهل والطغيان وأنواع المعاصى فيه، فيحصل الأب حصته من سوء عمله، فيعَاقب عليه بمثل ما عوقب ابنه".

واستأثر الهدف الخلقى أيضًا باهتمام خاص من الغزالى، على الرغم من أن المنطق الدينى يقول بأن الهدف الدينى لابد أن يتضمنه .

ويعرف الغزالى الخلق بأنه: "هيئة فى النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية"، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعًا، سميت تلك الهيئة "خلقًا حسنًا" وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التى هى المصدر "خلقًا سيئًا"، وهذا يعنى أن سلوك الإنسان هو مرآة لما فى النفس من حسن وقبيح (على عثمان، ص ١٤٩).

ولكن الخلق ليس مجرد الأفعال، إذ إن الحكم على الفضائل المعينة على ضوء أعمال أى إنسان فقط اتجاه خاطئ، "فمن يصدر عنه بذل المال على الندرة لحاجة عارضة، لا يقال خلقه السخاء"، كما أن من يسخو بدافع من المصلحة الذاتية لا يمكن أن يوصف بالسخاء . يضاف إلى هذا أن عدم وجود الفعل لا يعنى بحكم الضرورة والواقع عدم وجود الفضيلة . وهكذا فإن الشخص الذى لا يبذل لفقد المال والفقر فقد يكون سخيًا فى خلقه . والخلق ليس عبارة عن القوة البدنية، القادرة على الفعل، فمعظم الناس قادرون على أداء الأفعال الإنسانية الممكنة . أما إذا كانوا يؤدون هذه الأفعال أو لا يؤدونها، فهذا أمر يعتمد على فضائلهم أو عاداتهم المتأصلة فى نفوسهم . وليس الخلق أيضًا عبارة عن المعرفة وتمييز الحسن من القبيح بين الأفعال، إذ قد تضم المعرفة معرفة الحسن والقبيح، أما الأفعال فإما أن تكون حسنة أو

قبيحة (على عثمان، ١٥٠).

ولا يتم حسن الشخصية الإنسانية كلها نتيجة حسن جانب من جوانبها، فكما أن حسن الظاهرة لأعضاء الجسم كلها لا تكون إلا بوجود الانسجام بين جميع أجزائها، وبحسن كل جزء منها، فإن حسن الخلق لا يكون إلا بجمال جميع أجزائه . أما القوى التى تتفاعل لتولد حسن الشخصية فهى العلم والغضب والشهوة والعدل، ولكل قوة من هذه القوى فضيلتها الخاصة بها، فأمهات الأخلاق وأصولها أربعة هى : الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعقل (على عثمان، ص ١٥٠)، مما يثير الانتباه إلى ما جاء به أفلاطون فى هذا الشأن، وهو الأمر الذى وجدناه لدى الكثرة الغالبة من فلاسفة الإسلام ومفكريه، وخاصة المشتغلين بالفلسفة، مع تعديل هنا وتعديل هناك .

لكن الغزالى فى (كيمياء السعادة، ص ٣٩)، يعلن صياغة خاصة به، فيكتب فصلا عن (الأخلاق الحسنة والأخلاق القبيحة)، معلنًا فيه أن فى جلد ابن آدم أربعة أشياء :

١- الكلب .

٢- الخنزير .

٣- الشيطان .

٤- الملك .

والكلب مذموم فى صفاته، وليس بمذموم فى صورته، وكذلك الشيطان والملائكة، ذمهم ومدحهم فى صفاتهم، وليس ذلك فى صورهم وخلقهم، وكذلك الخنزير مذموم فى صفاته، وليس بمذموم فى خلقته.

وقد أمر ابن آدم بأن يكشف ظلم الجهل بنور العقل، وخوفًا من الفتنة، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: "ما من أحد إلا وله شيطان، ولى شيطان، وإن الله قد أعاننى على شيطانى حتى أسلم"، مسلم، والترمذى، والدارمى، والنسائى .

وكذلك الشهوة والغضب، ينبغى أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعلان شيئًا إلا بأمره، فإن فعل ذلك صح له حسن الأخلاق، وهى صفات الملائكة، وهى بذر السعادة، وإن عمل بخلاف ذلك، فخدم الشهوة والغضب، صح له الأخلاق القبيحة، وهى صفات الشياطين، وهى بذر الشقاء، فيتبين له فى نومه كأنه قائم مشدود الوسط يخدم الكلب والخنزير، وكان مثله كمثل رجل مسلم يأخذ رجالاً مسلمين يحبسهم عند كافرين "فكيف حالك يوم القيامة إذا حبست الملك – وهو العقل – تحت يد الشهوة والغضب، وهى الكلب والخنازير" ؟ (كيمياء السعادة، ص ٤٠).

ومن هنا أيضًا يلح الغزالى على مسئولية الأبوين فى التنشئة "فإن الخلقة على الإسلام، والقابلية والاستعداد للعلم، وسائر السعادات الدينية والدنيوية وزوالها عن الأبناء إنما هو بسبب الأبوين"، ويستشهد فى ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرةَ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ..." . وكذلك كل مولود يولد على القابلية والاستعداد للعلم إلا أن أبواه يجهلانه، فإن الأبناء إذا اكتسبوا الأدب والعلم والمعرفة وأنواع السعادات الدنيوية والأخروية حصل من هذه الأوصاف الحميدة على ثواب كثير له ولأبويه، حيث يقول صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له".

واجبات المتعلم :

هو موضوع مشترك بين الجمهرة الكبرى من المربين المسلمين، يأتى فى صورة "آداب" و "وظائف" يتحتم على طلاب العلم أن يتحلوا ويلتزموا بها، واستقراؤها يعكس غالبًا الرؤية الفكرية العامة للمربى، ومن ثم فالغزالى هنا يبث إلينا من وراء هذه الآداب والواجبات رؤيته العامة التى عرضنا لبعض ملامحها فى النقاط السابقة، وهذه الواجبات كما بسطها فى الجزء الأول من كتابه إحياء علوم الدين، تسير فى الخطوط العريضة التالية (ج١، ص ٤٨):

١- إعطاء الأولوية المطلقة لعملية التطهير النفسى الداخلى، عن رذائل الأخلاق والصفات المذمومة، ذلك أن العلم هنا، بمعناه الأخروى، هو شكل من أشكال العبادة للقلب، وصورة من صور الصلاة، وهو قربة الباطن إلى المولى -عز وجل-، وبناء على هذا يسوق الدليل المنطقى على صحة مبدئه هذا عن طريق القياس بعد أن قام بهذه العملية من المشابهة بين الأمرين؛ العلم والصلاة، وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بعد تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف، ويستند فى ذلك إلى ما ينقله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "بنى الإسلام على النظافة"، وإن كانت الرواية لا سند لها، وهو أمر يشيع مع الأسف الشديد فى عدد من صفحات الإحياء . أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ففيه تنبيه للعقول على الطهارة والنجاسة بحيث لا تقتصر على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف البدن مغسول الثوب، ولكنه نجس الجوهر، أى أن باطنه قد تلوث بالخبائث .

لكن البعض قد يتساءل عن نفر من طلاب العلم يتسمون برداءة الأخلاق، ولكنهم يحصلون العلم، بيد أن الغزالى ينفى أن يكون ما حصلوه هو العلم النافع المؤدى إلى رضا المولى -عز وجل-، على أساس أن هذا العلم النافع وظيفته الأساسية أن يطهر قلب الطالب من أدران المعاصى، وما غير ذلك فليس من العلم فى شىء، وينقل الغزالى هنا عن ابن مسعود قوله: "ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب" . وذهب البعض إلى أن العلم خشية؛ حيث يقول - سبحانه وتعالى- فى سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾. فكأنه أشار إلى أخص خصائص العلم؛ ألا وهى زرع الخشية لله فى قلب العالم والمتعلم .

٢- كذلك من الضرورى لطالب العلم أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا، وتبلغ درجة الغلو بالغزالى أن يطلب من طالب العلم، زيادة على ذلك، أن يبعد عن الأهل والوطن "فإن العلائق شاغلة وصارفة"، ويستند فى ذلك إلى مقولة تقول بأن "العلم لا يعطيك بعضه إلا بأن تعطيه كلك" (ص٥٠) .

ولعمرى إن مجانبة هذه النصيحة الغزالية للأصول الواجبة واضح، فالمفروض على المسلم أن يعترك الحياة ليصحح ويوجه إلى الصواب، ويبذر بذور التخلق الإسلامى، والمعتزل لشواغل الحياة، كيف يمكن أن نثق فى قدرته على مقاومة الرذيلة ؟ وكيف يمكن أن ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف إلا بأن يغشى المحافل والمجتمعات، شريطة أن يكون نهج الدين هو حاكمه فى الدعوة بالمعروف والجدال بالتى هى أحسن .

٣- يؤكد الغزالى فى هذه الوظيفة على ضرورة التواضع بالنسبة إلى المتعلم تجاه معلمه والسمع والطاعة له، لكنه هنا أيضًا يبالغ ويغالى، حتى إنه يطلب الاستسلام المطلق من التلميذ للمعلم، قياسًا على موقف المريض من الطبيب، وهو قياس فيه تجاوز إلى حد ما، ففى موقف التلميذ لا بأس من المناقشة والحوار وإعطاء طالب العلم فرصة إبداء الرأى والمخالفة أحيانًا، بشرط أن يتم ذلك بأدب وتهذيب، ووفق قواعد المنطق والبرهان والدليل العلمى الحاسم، وعكس هذا يذهب مفكرنا الكبير "ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه" (ص ٥٠).

ويبدو أن الغزالى قد حدس أن فى هذا غلوًّا، وأن المولى - سبحانه وتعالى- قد أمرنا بأن نسأل أهل الذكر فى حال عدم علمنا بالأمر المسئول عنه، لكنه يفسر هذا وفقًا لمنطقه، بمعنى ألا يسأل الطالب إلا فيما يأذن به المعلم نفسه، وهو يستند فى ذلك إلى ما رواه القرآن الكريم من قصة الخضر مع موسى - عليهما السلام- وكيف طلب منه أن يكف عن السؤال !

لكن الغزالى من ناحية أخرى يثبت أمرًا يستحق المؤازرة وخاصة فى أيامنا الحالية لغيابه إلى حد كبير، وهو يتعلق بالاحترام والتقدير المفروض بذلهما للعلماء عامة سواء من طالبى العلم أو من معلميه، ونقل فى ذلك ما رواه الشعبى من أن زيد بن ثابت صلى يومًا على جنازة، فقرب إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم، أخرجه الطبرانى والحاكم، وفى ذلك قال صلى الله عليه وسلم: "ليس من أخلاق المؤمن

التملق إلا فى طلب العلم" وهو ضعيف السند، وإن كان معناه يتسق والسياق النبوى خاصة والإسلامى عامة.

٤- فى كثير من العلوم؛ وخاصة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومنها كذلك العلوم الدينية، خلافات فى الرأى وتباين فى وجهات النظر من المهم الإحاطة بها، لكن، ليس للمبتدئ، لأن قدميه لم ترسخا بعد، فإن دخوله فى مثل هذه الاختلافات يشتت انتباهه ويوقعه فى البلبلة، ومن ثم يوصيه الغزالى بأن يلزم خطًّا واحدًا، هو الذى يرشده إليه معلمه (ص٥١).

لكن، ماذا لو لم يكن المعلم ذا خط واضح محدد ؟ هنا ينصح الغزالى التلميذ بأن يبتعد عنه، ووفقًا لتشبيهه : فلا يصح لأعمى أن ينقاد لأعمى . والأمر فى ذلك أيضًا مثله مثل الداخل حديثًا فى الإسلام، لا يصح له أن يخالط الكفار، فهو لم يصبح بعد ذا قدم راسخة، فلربما سهل على المعادين أن يردوه عن دينه أو يزيغوا قلبه بالشبه .

٥- أن يبذل طالب العلم أقصى ما يستطيع من جهد للاطلاع على العلوم المحمودة وفقًا لمعايير الغزالى، مع التركيز على غاية هذا العلم أو ذاك ومقصده، فإذا ساعده العمر تبحر فى هذا أو ذاك، مع التنبه إلى أن الإنسان عدو ما جهل، فلا ينصاع لهذه العداوة، وفى هذا قال شاعر :

ومن يك ذا فم مرض يجد مرًّا به الماء الزلالا

والعلوم على درجات ومراتب : إما سالكة بالمتعلم إلى الله تعالى، أو معينة على السلوك نوعًا من الإعانة .

٦- لكن طالب العلم وهو يسعى إلى الوقوف على العلوم المختلفة، لا ينبغى أن يخوض فيها دفعة واحدة، بل يراعى مبدأ الأولويات، فيبتدئ بالأهم، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبًا، فالحزم أن يأخذ من كل شىء أحسنه، وهو فى ذلك لا بد أن يعى أن أشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل (ص ٥٢).

٧-وإذا كان من المفروض أن يخوض طالب العلم فى العلوم المحمودة، وفقًا لسلم أولويات، فهذا لا بد أن يترافق معه قاعدة مهمة ألا وهى أن لا يخوض فى فن قبل أن يستوعب الفن الذى قبله، فالعلوم نفسها مرتبة ترتيبًا ضروريًّا، وهو بهذا المعنى يفهم قول المولى عز وجل فى سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾، (الآية ١٢١) أى لا يجاوزون فنًّا حتى يحكموه علمًا وعملاً، وليكن قصده فى كل علم يتحراه الترقى إلى ما هو فوقه .

٨- أن يعى طالب العلم أبرز معايير تصنيف العلوم وترتيبها وفق سلم الأولويات، وهو المعيار الذى نفتقده إلى حد كبير فى تفكيرنا فى شئون عدة، ومنها التعليم، ويركز الغزالى هنا على معيارين أساسيين هما: شرف الثمرة، ووثاقة الدليل وقوته، ومثالنا هنا هما علم الدين وعلم الطب، فثمرة علم الدين الحياة الأبدية، وثمرة علم الطب الحياة الدنيوية، فيكون علم الدين أشرف من علم الطب.

أما بالنسبة إلى وثاقة الدليل، مثل علم الحساب وعلم النجوم، فإن علم الحساب أشرف من علم النجوم لوثاقة أدلة الحساب وفقًا لمستوى المعرفة فى عصر الغزالى، لكن لو قرن علم الحساب بعلم الطب، من حيث الثمرة اعتبر علم الطب أشرف؛ لأن ثماره أقرب من ثمار علم الحساب "وبهذا يتبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم" (ص٥٣).

٩- أن يكون قصد المتعلم العاجل تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، أما قصده الآجل فيكون القرب من الله سبحانه والترقى إلى الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران .

وعلى الرغم من إلحاح الغزالى على الطالب بأن يبتغى علم الآخرة باعتباره هو الأعز والأفضل، إلا أنه حذر من تحقير سائر العلوم مثل علم الفتاوى وعلم النحو واللغة، فهما متعلقان بالكتاب والسنة وغيرهما من العلوم: "ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين فى سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم الذى يسقيهم الماء، ومنهم من يحفظون دوابهم ... "،

وفى كل خير. وهذا هو منطق القرآن نفسه، حيث قال عز وجل فى سورة المجادلة: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

٩- أن يعى موقع كل علم بالنسبة إلى المقصد الأعلى من تحصيل المعرفة ألا وهو القرب من الله - سبحانه وتعالى-، وهو يضرب المثال بما يتصل بالحج، فمقصده معروف من حيث الانصياع إلى أوامر الشرع باعتباره فريضة لمن استطاع إليه سبيلاً، فالعلوم ثلاث مراتب وفقًا لهذا القياس : قسم يجرى مجرى إعداد الزاد ووسيلة الانتقال وما يتصل بها من مطالب، وهو علم الطب، وعلم الفقه وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا. وقسم يجرى به مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن، وهنا يبرز علم مثل علم الأخلاق . وقسم ثالث يجرى مجرى الحج نفسه بممارسته ومراسيمه، وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله، وكل ما يتصل بالطريق المؤدى إلى المكاشفة.

وظائف المعلم :

وإذا كان هذا هو فضل العلم، وإذا كان هذا هو مقام التعلم، وإذا كانت هذه هى قيمة التعليم، فإن هذا كله منوط إلى حد كبير بمن يقوم بأمر التعليم ألا وهو المعلم، مما كان لا بد معه أن نتوقف عند ما أشار إليه الغزالى فى (الإحياء، ج١، ص ٥٦)، حيث حصر وظائف المعلم فى الأدوار التالية :

١- الانطلاق فى عملية التربية والتعليم مع طلاب المعرفة، وخاصة فى معاهد التعليم من منطلق "الأبوة"، ومن هنا طالب الغزالى من المعلم أن يجريهم مجرى بنيه، مستندًا فى ذلك لما رواه عن رسول الله ﷺ : "أنا لكم مثل الوالد لولده"، أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة وابن حبان، من حديث أبى هريرة. إن معاملة المعلم لتلاميذه معاملة بنيه يعنى أنه يعمل على نجاتهم من النار، كما نستدل على ذلك من قوله - سبحانه وتعالى- فى سورة التحريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾، فلا سبيل لأن ينجى الإنسان

أهله من نار جهنم إلا بأن يحرص على تنشئتهم وتربيتهم وتعليمهم بما يجعلهم مستقيمى الصراط .

ويركز الغزالى على استهداف الآخرة بالتعليم؛ لأن تركيز الوالد تعليم أولاده على الدنيا يزرع بينهم التحاسد والبغضاء، بينما لا وجود لمثل هذا فى الآخرة. لكننا فى الوقت نفسه، نذكر ما قاله الغزالى نفسه فى موضع سابق من أن الدنيا مزرعة الآخرة، أى ألا نفهم من تركيزه على علوم الآخرة الإهمال التام لعلوم الدنيا، كل ما هنالك أن تكون هذه الأخيرة منضبطة بميثاق أخلاقى يقى الإنسان من التدنى واستهلاك الجهد فى المعارك الدنيوية الصغيرة التى لا تتجاوز فائدتها المصالح الشخصية البحتة.

٢- أما الوظيفة الثانية، فقارئ اليوم لا بد أن يتوقف أمامها بالدهشة والاستغراب، لأن الإنسان بطبيعته، يقرأ دائمًا من خلال السياق المجتمعى والحضارى الذى يعيشه، فإذا كان الغزالى يؤكد على ضرورة أن يقتدى المعلم برسول الله ﷺ، وذلك بألا يتلقى من طالب العلم أجرًا على تعليمه إياه، لكننا هنا إذ نتحفظ على هذه النصيحة الغزالية، لكننا فى الوقت نفسه لا نلومه، وإنما نقرؤها فى سياقها الثقافى أيضًا، فالقدوة هنا نبى رسول، لا ينتظر من الناس أجرًا على تبليغهم وتعليمهم الدعوة الجديدة .

وفضلاً عن ذلك، فإن الكثير من علوم العصر الإسلامى فى قرونه الأولى كانت تتمحور حول القرآن الكريم والسنة النبوية، وكل مسلم مفروض أن يبلغ ما يعلمه منها إلى الآخرين، والإنسان عادة لا يتلقى أجرًا على قيامه "بفريضة"، لكن علوم العصر الذى نعيشه، بل ومنذ قرون، وفى القرون الأخيرة من الحضارة الإسلامية اتسعت لتشمل الكثير مما يمكن تسميته بعلوم الدنيا مثل الجغرافيا والتاريخ والرياضيات والعلوم التطبيقية وغيرها، وبالتالى فتعليمها هو جهد بشرى يستنفد طاقة بدنية وذهنية وقلبية يستحق على من يقوم بها أجرًا .

لكن ما يمكن الالتزام به، هو عدم المغالاة فى طلب الأجر، كما نرى فى عصرنا الحاضر من مدرسى الدروس الخصوصية، أو من معاهد التعليم الخاصة، وألا يتدنى طالب الأجر فى شكل طلبه ووسائله .

٣- بذل أقصى جهد فى تزويد المتعلم بكل ما يتاح للمعلم من معارف، ويحرص على أن يسير معه وفق مبدأ التدرج، بحيث لا ينتقل إلى علم إلا بعد أن يتقن مبادئه وقواعده وأصوله، ومن ثم تتوافر أهليته لتحصيله . وتتجلى سنة التدرج أيضًا فى الحرص على عدم الإقبال على ما هو مركب قبل الفراغ مما هو بسيط .

٤- أن يعمل على نهى الطالب عن سيئ الأخلاق، على أن يحرص على أن يجىء هذا بطريقة غير مباشرة، تجنح إلى التلميح لا التصريح، والغزالى فى هذا يبرهن على دقة نظر تربوى، حيث من المعروف أن فى النفس نزعة إلى المعاندة والمخالفة عندما يجىء الزجر والنصح بطريق مباشر فى مواجهة ما قد نراه من صور انحراف وسوء تصرف من الطلاب، وهو فى هذا يستند إلى ما نقله عن رسول الله ﷺ، دون سند يقويه "لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شىء"، وكذلك يذكرنا بما حدث لآدم وحواء، وكيف نهاهما الله عز وجل عن الاقتراب من شجرة بعينها فى الجنة، لكنهما خضعا لغواية الشيطان، فخالفا أوامر المولى سبحانه. وبالإضافة إلى ذلك، فإن اللوم والنصح بمجرد التلميح وبأسلوب غير مباشر يفسح المجال للمنصوح أن يستنبط بعقله المعنى المراد، فيكون حريصًا من ثم على الاتباع، وهو يتصور أن النصح والزجر إنما هو نتيجة لفهمه واستنباطه هو .

٥- أن يحرص المعلم على تعويد المتعلم ألا يستقبح غير ما قد تخصص فيه أو مال إليه، فمن العوائد الشائعة مع الأسف الشديد أن يتعصب أهل كل علم للعلم الذى عرفوه، وهذا فى حد ذاته لا غبار عليه، إنما يأتى الغبار عندما يتصورون أن غير ما يعرفونه، ضعيف الشأن قليل القيمة، وهذا يمكن أن نجده على سبيل المثال بين أهل الاختصاص التربوى، فقد تسمع ممن تخصص فى المناهج وطرق التدريس تهوينًا من شأن أصول التربية، وقد تسمع من أهل أصول التربية تقليلاً من شأن الصحة النفسية، والعكس بالعكس ... وهكذا .

٦- الوظيفة السادسة، أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه وقدراته واستعداداته، وهذا مما يتسق مع الشريعة الإسلامية، حيث نجد التنبيه دائمًا على أن الله - سبحانه وتعالى- ﴿لا يكلف نفسًا إلا وسعها﴾، و"الوسع"، بمعنى القدرة والاستطاعة، ترتبط دائمًا بالأعمال التى

يكلف بها الإنسان، ومن ثم كان من الضرورى ألا يكون الأمر فى التعليم على غير ذلك، وفى هذا قال ﷺ: "نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُنزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم"، حيث ذكر الحديث فى روايات أخرى بالقول "أنزلوا الناس منازلهم".

ويرتبط بهذا ألا يكتم العالم معرفة يسأله عنها طالب علم، وفى التحذير من ذلك يسوق الغزالى حديث رسول الله ﷺ: "من كتم علمًا نافعًا جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار"، أخرجه ابن ماجة، لكن فى الوقت نفسه ينصح الغزالى بألا يبذل المعلم معرفة لمن لا يستحقها، وفقًا لقاعدة تقول: "ليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق".

٧- والوظيفة السابعة ترتبط بالسابقة، فإذا كان طالب العلم مبتدئًا، فى أول طريق المعرفة، وجب ألا ندخله فى دقائق المعرفة ودهاليزها المتعددة، وإلا أرسينا بينه وبينها سدًّا، فحسن التفطن يقتضى الاقتصار هنا على المبادئ والأوليات، وهو الرأى الذى سوف نجد مثله لدى ابن خلدون، بل وكثير من المربين المسلمين.

٨- أن يعمل المعلم بما يعلم، وهذه قاعدة ذهبية، قد لا تخلو منها أفكار مربٍّ، أو تغيب عن ذهن معلم، وفقًا للمبدأ الشهير:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

بل إن الممارسة العملية والتطبيق الفعلى لما يدعو إليه المربى من أكثر الوسائل فاعلية فى إقناع المتعلم بالامتثال والتصديق والإيمان بما يسمع ويقرأ، وفى ذلك قال - سبحانه وتعالى- فى سورة الصف: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾.

مناهج التعليم:

بما أن الغزالى رأى أن العلم الحقيقى هو العلم بالله وصفاته والأمور الأزلية التى لا تتغير،

فقد كان من الطبيعى وهو يصنف العلوم الواجب تعليمها وتعلمها أن نلمس ذلك من حيث التقدير والتقديم والأولوية والمكانة، وهو لذلك يقسم العلم إلى ثلاث فئات (الإحياء، ج١، ص ٣٨) :

أ- فئة يكون العلم فيها مذمومًا قليله وكثيره .

ب- وفئة يكون العلم فيها محمودًا قليله وكثيره .

جـ- وقسم يحمد منه مقدار الكفاية، ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه .

والفئة المذموم قليلها وكثيرها، تشمل من العلوم "ما لا فائدة فيه فى دين ولا دنيا، إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات والنجوم، فبعضه لا فائدة فيه أصلاً، وما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به قضاء وطر فى الدنيا"، وإذا كان العمر هو أثمن ما يملك الإنسان، يصبح من السفه إنفاقه فى تحصيل مثل هذه العلوم .

وأما الفئة التى تضم المحمود من العلوم، قليله وكثيره، إلى أقصى غايات الاستقصاء، فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته فى خلقه، وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، وما خاض فيه إلا الأنبياء والراسخون فى العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى فى حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذى لا يسطر فى الكتب، ويعين على التنبه له مشاهدة أحوال علماء الآخرة، هذا فى أول الأمر، ويعين عليه المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه من علائق الدنيا والتشبه فيه بالأنبياء والأولياء، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد، ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد، فالمجاهدة مفتاح البدايَة لا مفتاح سواها (الإحياء، ج١، ص ٣٩).

ويتضح من هذا أن الفئة الأولى يجب أن تنبذ، فلا يكون لها مكان فى أى منهج تعليم، وأن علوم الفئة الثانية، يستعان على تحصيلها بالتعلم والمطالعة ومشاهدة أحوال علماء الآخرة، ولكنها يجب أن تطلب بعد ذلك بالمجاهدة فيكون سلوك طريق التصوف فى آخر الأمر غاية من الغايات الأساسية التى يجب أن يؤدى إليها التعليم.

وأما الفئة الثالثة فتضم العلوم التى اعتبر تحصيلها من فروض الكفايات، على أن يراعى التدرج فى تحصيلها، فيتدرج من الأصول إلى الفروع إلى المقدمات فالمتممات (الإحياء، ج١، ص٤٠)، وهو من أجل هذا ينصح المتعلم بأن يبتدئ بكتاب الله تعالى، ثم بسنة نبيه ﷺ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك فى السنة . ثم فليشتغل بالفروع وهو علم المذاهب من علم الفقه– بعيدًا عن الخلافات المذهبية – .. وهكذا إلى بقية العلوم، على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت.

ويبدو الغزالى هنا من دعاة المناهج الشاملة غير المتخصصة، فهو ينصح بأن لا يستغرق العمر فى فن واحد طلبًا للاستقصاء، ويذكر سببين لدعوته هذه (الإحياء، ج١، ص ٤٠):

الأول : أن العمر قصير والعلم كثير، ومعناه أن المرء الذى يطلب من أجل النجاة فى الآخرة يجب أن يسعى إلى تحصيل أكبر قدر من العلوم، وهذا لا يكون إلا على حساب التخصص والاستقصاء .

الثانى : أن العلوم الكفائية هى آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغى أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه .

ويظهر من هذين السببين أن دعوته للمناهج الشاملة غير المتخصصة إنما تنبع من اعتبار غاية التعلم تجاه المتعلم فى الآخرة، أى انطلاقًا مما يعود به التعلم من فائدة خاصة تتعلق بشخص المتعلم، فى حين تنبع نظرية المناهج المتخصصة من الحاجة إلى تطوير العلوم فى مجالات محددة استجابة لمتطلبات وحاجات المجتمع (حسن بزون، ١٩٩٧، ص ١٧٢) .

طرق التهذيب والتعليم :

تحتاج شخصية الإنسان إلى الاستناد إلى جملة من الطرق والأساليب الفعالة التى تعين على أن يجىء التكوين الشخصى بالصورة التى تتسق مع مقاصد الإسلام، وهو الأمر الذى

كان من الطبيعى لمفكر موسوعى مثل الغزالى أن يعنى به، ويودعه الجزء الثالث من موسوعته (إحياء علوم الدين)، والتى سارت وفق الخطوات التالية أو بالأحرى وفق الأساليب التالية (ص٦٣):

١- من المهم للغاية أن يحرص المعلم على بث روح الثقة بالنفس والتشجيع لدى المتعلم، وأبرز الوسائل لذلك أن الطفل إذا أتى سلوكًا جميلاً، وعملاً محمودًا، فلنبادر إلى إسماعه عبارات ثناء، وخاصة أمام الناس، فمن شأن هذا أن يعزز ما أتى من سلوك قويم، بل ويشجعه على أن يفعل ما هو أكثر طمعًا فى مزيد من الرضا والثناء . لكن، ماذا لو حدث العكس، بأن أتى الطفل سلوكًا غير محمود، مع حرص على ستره وإخفائه ؟ هنا من المفضل على المربى أن يتغافل عن ذلك ويتظاهر بأنه لا يعرف شيئًا مما فعل حتى لا يخجله، لكن الطفل إذا عاد إلى تكرار سيئ ما فعل، فمن الواجب هنا على المربى أن يبدأ بمعاتبته سرًّا، مع بيان وجه خطئه وآثار ذلك، وينبه إلى الصواب، ويُحَذر من العودة إلى مثل هذا الخطأ، خوفًا من أن يفتضح أمره بين الناس.

٢- التزام الاعتدال عند توجيه اللوم والتوبيخ : حيث نرى بعض المربين يكثر من توجيه اللوم والتوبيخ فى كل حين، وهذا من شأنه أن يقلل من قيمة هذا النهج ويضعف تأثيره، مما يوجب الحرص على المحافظة على هيبة الكلام الصادر من المربى، ومن سبل ذلك تقليل استعماله، بل وعدم استعماله إلا عند الضرورة القصوى. إن الطفل هنا بحاجة إلى حسن المعاملة، فالأوامر تنصب عليه من الأب ومن الأم، ومن المعلم، ومن الكبار على وجه العموم، وقد يتضارب بعضها مع بعض، أو يصعب تنفيذها، أو تصحب بتعبيرات وإشارات مقلقة، ومن ثم وجب التعامل مع الطفل بقدر معقول من اللين والسماحة والعفو فى بعض الأحيان، وفقًا للمرحلة العمرية.

٣- وفى كتاب (منهاج المتعلم) الذى نشره هشام نشابة ناسبًا إياه للغزالى، نجد الغزالى ينصح المعلم بأن طالب العلم إذا جىء به مبتدئًا، أن يداعبه ويكرمه ويعززه "لأن المبتدئ كالطير الوحشى، لا يأنس إلا بالتلطف، فإن العلم أشق عليه وأمر، فيجب إصلاحه على ما

يقتضيه طبعه" (التراث التربوى الإسلامى، ص ٧٤). ويرتبط بهذا ألا يتعبه حتى لا يسمع كلامه ولا يعمل بأمره .

٤- وإذا كنا نفرق فى عصرنا الحاضر بين التربية والتعليم، فإن الغزالى يقول بشىء من هذا ناصحًا المعلم بأن يبدأ "بالتأديب، ثم بالتعليم"، فالتهذيب والتأديب والتربية، تتعلق بإرساء أسس البنية الأساسية للشخصية من حيث القيم والأخلاقيات والآداب والقواعد الاجتماعية العامة، والتنشئة الدينية، ومن ثم فهذه البنية الأساسية لا بد منها أولاً قبل أن نمضى بالتلميذ نحو التحصيل المعرفى (ص ٧٤).

٥- كذلك من الحيوى للغاية أن يشخص المعلم طبيعة المبتدئ من حيث القدرات العقلية التى يسميها "الذكاوة والغباوة"، وبالتالى يكون تعليم المبتدئ على قدر وسعه، لأنه لو كلفه فوق ما يستطيع، فسوف يكون الفشل محتمًا على وجه التقريب. لذا فمن الخطأ في الرأى أن نقارن بين العمليات العقلية لدى كل من الإنسان البالغ والطفل، وأن نجعل الأول منهما مقياسًا للثانى، ومتى اقتنع المربى بخطأ هذه المقارنة فطن إلى عقم الطرق المدرسية العتيقة التي تعامل الطفل معاملة البالغ العاقل، وذلك بقهر التلاميذ الصغار على استيعاب مواد تشحن بها ذاكرتهم، ولا يسهمون، هم أنفسهم في محاولة فهمها، نظرًا لارتفاع هذه المعلومات عن مستواهم العقلى، مما يؤدى إلى تعطيل نموهم العقلى والخلقى، وهذا هو ما أشار إليه الغزالى عند حديثه عن اتباع طريق التدرج في التعليم كما سبق أن أشرنا، ونؤكد هنا أيضًا، عدم الإثقال على المبتدئين في العلم بالتفاصيل غير المجدية "فإن ذلك يدهش العقل ويحيّر الذهن، ويصرف المتعلم عن الإدراك والاطلاع ".كذلك نجده يوصى بالانتقال من البسيط إلى المركب "فإن العلوم مرتبة ترتيبًا طبيعيًّا، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج" . ويفصح الغزالى عن عبث محاولة شحن الذاكرة بالعلوم، ويفضل أن يكون المرء لنفسه فكرة عامة عن العلوم، وله أن يشتغل بالأهم، فليست المسألة إذن مسألة كم، بل مسألة كيف (محمود قاسم، ١٩٦٧، ص ٢٠٠).

٦- وينبه الغزالى على أمر غاية فى الدقة، وهو ما يستقطب اهتمامات كثير من الباحثين والممارسين حتى الآن، وهو الأساس الذى ينبغى أن نقيم عليه عملية "جمع" التلاميذ

بعضهم مع بعض، فأغلب الآراء تميل إلى ضرورة توفير التجانس، وهو ما أكد عليه الغزالى بالتحذير من أن "يشرك الذكى مع الغبى"، ومنطقه فى ذلك أن هذه القاعدة إذا لم تراعَ، فسوف يكون هناك "تقصير فى الذكى وكُسلان فى الغبى".

٧- من المهم أن يحرص المعلم على أن تكون كرامته محفوظة لدى الطلاب، صحيح قد لا يبدو ذلك واضحًا من حيث طرق التعليم، لكن الصلة إذا كانت غير مباشرة إلا أنها مهمة، وحسب تعبير الغزالى "فإن العلم لا يحصل إلا بالتعظيم والتكريم، (و) من لا يبالى فى متعلم وصفه على ما ذُكر، ولم يلتفت حتى مر عليه الزمان، فقد خان فى حقه، لتضيع أيامه".

٨- ومن الواجب على المعلم أن يكون حسن العبارة عند التكلم، وتفصيل الكلام وإيضاحه بعد ظهوره، يعنى أن يعبر بما ينفع به المبتدئ بكلام بليغ فصيح الكلمات، وتفصيل لما أجمله فى الكلام، وإيضاح له على وجه يفهم منه المراد بسهولة .

وقد عقد الدكتور محمود قاسم مقارنة بين بعض آراء الغزالى بالنسبة إلى تربية الطفل وآراء المفكر المعروف "جان جاك روسو" ليلحظ بعض التشابه، وعلى سبيل المثال، فإن روسو يحتج ضد أساليب القهر في تربية الأطفال، سواء أكانت تربية جسمية أم عقلية، حيث يشير روسو إلى أن بعض القابلات يزعمن أنهن يشكلن رءوس الأطفال حديثى العهد بالولادة عندما يعركنها عركًا شديدًا ولا يجد الآباء والأمهات حرجًا في قبول ذلك، فكأن خالقنا – نستغفر الله – لم يحسن تصوير رءوسنا، فيجب أن تشكلها القابلات من الخارج، وأن يشكلها الفلاسفة من الداخل، ويريد بالتشكيل من الداخل هنا أسلوب شحن أذهان الأطفال بمعلومات لا تهمهم، ولا ترتبط بواقعهم وحواسهم، أو تشبع حاجاتهم، وذلك عندما يظن المربى أن من واجبه أن ما يصلح للبالغ هو ما يحتاج إليه الطفل، ومن قبل، قال الغزالى إن طعام الكبير لا يصلح للصغير، كما أن الكبير يشمئز، هو الآخر من الارتضاع بلبن الآدمى (محمود قاسم، ١٩٦٧، ص ١٩٩).

كذلك حرص روسو على تحديد القاعدة الأساسية في التربية، وهى تلك التي تتلخص في أننا متى أردنا أن ندفع شخصًا إلى عمل ما، فمن الواجب أن نضعه في الظروف الكفيلة بخلق الحاجة التي يكون العمل المرغوب فيه وسيلة إلى إشباعها، أى لا بد من إثارة اهتمام الطفل،

إذ إن مثل هذا الاهتمام هو الدافع الأكبر الذى يسدد خطاه ويقوده بعيدًا (محمود قاسم، ص ٢٠٢).

ومن قبل، استهجن الغزالى أسلوب هؤلاء الذين يتشدقون بالكلام ويتكلفون السجع والفصاحة، متبعين في ذلك ما جرت به عادة المتفاحصين المدعين للخطابة، ورأى أن ذلك كله من التصنع المذموم والتكلف الممقوت، مستشهدًا بقول رسول الله ﷺ: "أنا وأتقياء أمتى برآء من التكلف"، كما قال أيضًا ﷺ: "أبغضكم إلىَّ وأبعدكم عنى الثرثارون المتفيهقون". وهم المتشدقون في الكلام .

وفى النهاية لا يسع الإنسان حقًّا إلا أن يسجل الكثير من التقدير لهذا المفكر الموسوعى، وليس أدل على ذلك، فى مجال الفكر التربوى، أنه، ربما، حظى أكثر من غيره، بالعديد من الدراسات والبحوث، ولا توفيه هذه الصفحات التى كتبناها عن فكره حقه، لكن عذرنا، طوال الكتاب، أنه يغطى فكر كثيرين، مما يمكن أن تطيقه الأوراق والصفحات فى مثل هذا الحال .

مراجـع:

١- أبو حامد الغزالى :إحياء علوم الدين، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د.ت.

٢- _____: المنقذ من الضلال، القاهرة، المكتبة المحمودية، د.ت.

٣- _____: مشكاة الأنوار، حققه أبو العلا عفيفى، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤.

٤- _____: كيمياء السعادة، تحقيق محمد عبد العليم، القاهرة، مكتبة القرآن، الرياض، مكتبة الساعى، ١٩٨٧.

٥- _____: تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٠.

٦- _____: ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٣.

٧- أحمد عبد الغفور عطار : آداب المتعلمين ورسائل أخرى فى التربية الإسلامية، بيروت، ١٩٦٧، ط٢، د.ت.

٨- حسن بزون : المعرفة عند الغزالى، النظرية التربوية التعليمية، بيروت، مؤسسة الانتشار العربى، ١٩٧٧.

٩- سليمان دنيا : الحقيقة فى نظر الغزالى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥.

١٠- على عيسى عثمان : الإنسان عند الغزالى، تعريب خيرى حماد، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٦٤.

١١- فتح الله خليف : فلاسفة الإسلام، القاهرة، الإسكندرية، دار الجامعات المصرية، د.ت.

١٢- محمد عاطف العراقى : ثورة العقل فى الفلسفة العربية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦، ط٣.

١٣- محمد غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

١٤- محمود حمدى زقزوق : المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت : الكويت، دار القلم، ١٩٨٣، ط٣.

١٥- محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧، ط٢.

١٦- محمود قمبر : الفكر التربوى ومصادره عند الغزالى، فى (محمد كمال جعفر: الإمام الغزالى، بحوث ومقالات بأقلام نخبة من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة)، الدوحة، جامعة قطر، ١٩٨٦.

١٧- هشام نشابة : التراث التربوى الإسلامى فى خمس مخطوطات، بيوت، دار العلم للملايين، ١٩٨٨.

obeikandl.com